لوتي الراحل الباقي[1]

اردتُ ان احتفي بذكره احتفاء خاصًّا ، انا التي طالما عشتُ في الصفحات الجميلة من كتبه وطالما استسلمتُ لسحر بيانه . فما اهتديتُ الى خير من أن أحمل كتابهُ عن مصر « موت انس الوجود » فاقرأهُ في مكان خصَّصهُ في هذا الكتاب بفصل فتَّان . فمضيتُ إلى دار الآثار المصرية وجلست طويلاً على مقربة من قاعة المومياءات . وطالعت فصولهُ بهدوء وتأمُّل ، من النبذة الاولى وموضوعها ابو الهول والاهرام تلك الرموز العظمى التي راعهُ لونها الورديّ في ضوء القمر ، « التي بطلت عبادتها منذ مئات والوف الاعوام وما زال الناس من جميع الاجناس وجميع الازمان يقصدون اليها ويطوفون حواليها مجذوبين بما فيها من ضخامة وأسرار » . حتى اتيتُ على الفصل الاخير من اسوان وهيكل أنس الوجود فقرأت بعدئذ كلامهُ عن قاعة المومياءات في دار الآثار ، وهو الفصل الرابع من الكتاب ، وكنت ادَّخرتهُ خاتمةً لجلستي هذه مع لوتي الراحل الباقي

ليس أتفهُ — على ما يرى لوتي — من زيارة في النهار لهذا المتحف المصري الذي يمقي عليه هندستهُ البنائية ، فضلاً عن عرض أولئك الموتى الاجلاَّء لجميع الانظار بهيئة غير جليلة . لذلك اراد ان يزورهُ في الليل وحدهُ ، بل برفقة مدير المتحف في ذلك الحين . وان يتجوَّل في هذا المدفن الوسيع يرى ما يرى منهُ على نور المصباح الضئيل . فتخيفهُ مرَّةً نظرات العيون المحدجة كأن التماثيل تنفث في روعه وحي خاطرة آتية من أعماق الاحقاب . وطوراً ترعبهُ الجفون المسبلة كأنها تأبى رؤيتهُ ، وتنكر عليه اقتحام ناديها ساعة تنطلق الاشباح من الشخوص والذخائر لتتبادل فيما بينها ما جنتهُ في سكينة النهار من خلاصة الذات للبشرية الكبرى . . .

وكأني بلوتي في هواهُ وطلبه المومياءات عند انتصاف الليل يقرب كثيراً من بلقيس التي ردَّت على سليمان اذ قال لها « مُلكي عند قدميك . بماذا استطيع ان ارضيك ؟ » ردَّت بقولها : « اريد ان اخاف ! كيف اتعرَّف الى لذة الخوف ؟ »

ذهب لوتي يطلب هناك لذة الخوف ، ولذة التفرد بما لا يناله سواهُ ، ورعشة فنية يستعين بذكرها فيما بعد لتسلية ضجره الطويل الذي طاف به جميع الاقاليم

(١) انظر باب التقريظ والانتقاد في هذا الجزء

وجميع البحار فلم يزدد الاّ ظهوراً وثباتاً وتعدُّداً

***

كتب لوتي هذا الكتاب سنة ١٩٠٧ واهداهُ الى مصطفى كامل الذي كان مثلهُ « ابناً معنوياً » لمدام جوليت ادم . أخوان بالروح ، ابنان لأمّ واحدة ، ولكنهما ككثير من الاخوة يختلفان كل الاختلاف من حيث نظرتهما الى الحياة . كان لمصطفى كامل غاية معينة يجري وراءها ، ويسعى لها ، ويبذل في سبيلها شبابهُ وقوتهُ وذكاءهُ دون مراعاة لبنيتهِ الضعيفة . فهدمتهُ الحياة القوية . على انهُ ترك وراءهُ شرارة الوطنية وحبّ الراية الحمراء البهجة الخافقة في جوّ الوادي الاخضر

اما لوتي فقضى حياتهُ الطويلة وغرضهُ الصميم — هو يقول ذلك في كل كتاباتهِ — معالجة سآمتهِ الدائمة . لا شك ان تلك السآمة كانت فطرية في غريزتهِ . ولا شك كذلك انهُ كان يغالي فيها ويفرط في مجاراة « الزيّ الفكريّ » الرائج يومئذٍ في اوربا حيث كانت طائفة من الادباء والشعراء تحسب الضجر والسآمة والملل من ضروب الاناقة النفسية والاجتماعية . وظلت تلك الطائفة على ذلك حتى جاءت الحرب الكبرى تنفضت عن كثير من الرجال هذه الانوثة العليلة . وعنوان غرض لوتي من الحياة تجدهُ ملخّصاً في مطلع كتابهِ عن « ازياديه » حيث يقول : — « عند ما يتناولني الهواء الرطب كصبٍّ من مثلج الماء ، وترتدي الطبيعة هيئتها المغبرة المسترخية ، عندئذٍ اهبط الى ذاتي ولا اجد في داخلي غير ذلك الفراغ المفزع وسآمة العيش الواسعة » . « يجب ان نتبيّل على أحسن ما نستطيع طعم الحياة التافه »

وعلى ذلك يمضي « متبّلا » طعم ايامهِ ولياليهِ على احسن ما يستطيع . والذين يساعدونهُ على « التتبيل » مكافئهم (؟) بان يجعلهم موضوع كتاب جديد يبرّز فيهِ مقدرتهُ الشعرية العظيمة وفنهُ الساحر في الوصف والتحليل . ويشرح على صفحاتهِ فلسفة سآمتهِ — فلسفة القنوط الانيق والموت والفناء . ذلك باسلوب هو من أبدع واعذب واروع ما عرفتهُ لغة الفرنسيس من أساليب البيان

والنتيجة المنطقية لهذا المزاج العليل وهذه « العقلية » الصبية ، هي كره المدنية الحاضرة ونبذ كل مستحدث ومبتكر . لوتي يعيش في الماضي ، في التذكار ، في التلفت فلئن كان سميراً شيقاً في ساعات معيّنة من العمر ، فهو اسوأ استاذ لمن يريد ان يحيا ، واضرّ مرشد لمن يحفل بالحاضر وينشد المستقبل في انوار الرجاء وحرارة الايمان

هاك ما يقول في فصل « موت القاهرة » : — « بين فتيان المصريين مسلمين

واقباطاً المتخرجين في المدارس كم من ذي فكر ممتاز وذكاء وقاد ! واذ ألتي على هذه الارض المضمَّخة بذكرى المجد القديم نظرة الغريب الواصل البارحة ، اراني مدفوعاً الى أن أصيح في وجوههم بصراحة خشنة ولكن بعطف اكيد فاقول : —

« قاوموا قبل فوات الوقت ! قاوموا ليس بحدة ولا بشراسة ولكن بازدراء وامتهان صنوف التجارة الدنيا وهذه الاغارة المفسدة التي تفيض عليكم بعد ان ينقضي رواجها عندنا فننبذها ! حاولوا الاحتفاظ ليس بتقاليدكم ولغتكم العربية الحرية بالاعجاب فحسب ، بل احتفظوا بجمال مدنيتكم وبسرّها وبترفــــا كنكم المكرر المصون . انكم لمسؤولون عن كرامتكم القومية . لقد كنتم شرقيين (واني ألفظ باحترام هذه الكلمة التي تتضمن ماضياً ذا حضارة مبكّرة وعظمة جليلة) ولكن حذار افلن تمضي اعوام حتى يصنعوا منكم سماسرة شرقيين وهمكم الوحيد ارتفاع سعر الاراضي وغلاء القطن »

حبذا دعوة لوتي الى الاحتفاظ بجميل الموروث وكرامة اللغة . ولكن كيف يهملون تحسين اراضيهم وسعر اقطانهم والاقتصادُ أساس الاستقلال القومي في هذا العصر وفي كل عصر ؟ وهل تُستعبَد الشعوب ان لم يكن في ماليتها عجزٌ ؟ ثم ان نحن لم نستفد بمنافع مدنية الغرب فعلى اي مدنية نتكل ؟ وبأي المنافع نأخذ ؟ لقد كانت المدنية العربية نبيلة عظيمة وصلت بين حضارة الماضي والحاضر فشغلت تسعة قرون بطولها ، بينا حضارة اليونان والرومان معاً لم تشغل زمناً اطول . ولكن هل هي تكفينا اليوم إن نحن اعرضنا عن جميع الاساليب الجديدة التي اهتدت اليها عبقرية الانسان لحققها حذقةً في حياته اليومية ؟ السنا نسدّ أمامنا آفاقاً واسعة بالتعامي عما في مدنية الغرب من جمال وجلال ؟ ثم أليس هذا الانقطاع لذكرى الماضي كفيلاً في ان يستعبدنا الذين يتمتعون بكل ممكنات الحياة وكلّ مبتكرات الاكتشاف والاختراع

***

وقد ارتأى بعض كتابنا الافاضل تعريب كتاب « موت الس الوجود » وكتب لوتي الاخرى عن الشرق الادنى . وهو رأي وجيهٌ صائب لو قصر على الاعتراف بأدب لوتي الرائع والاقرار بالجميل نحو تلك النفس الكبيرة التي انالت الشرق وابناء الشرق قسطاً وافراً من عطفها ومحبتها . بل من شغفها واعجابها . فكانت مرآة سحرية نبصر فيها نفوسنا فنبتسم بافتتان وشكر . على ان الامر أبعد من ذلك . وفي نقل كتاب او كتب لوتي خطر على شبيبتنا متعدد الوجوه . فلوتي واحد من كتّاب الغرب بقرأه دون سوادُ القاريء العربي فيحسب رأيهُ في الحياة وسير العمران

الرأي الاعلى . وذاك خطأ . ولوني ضجر ملول يضرب ببراعة فائقة على وتر شديد الاحساس من اوتار النفس الانسانية ، وتر السآمة واليأس وبطلان العمل والجهاد ، والشك في كل عاطفة وكل إيمان وكل اخلاص . ويسوّغ لنفسه اي شيء ليتسلى ويلهو . ونحن في حاجة الى اهمال هذا الوتر المفني القوة . نحن في حاجة الى إهماله وتحريك أوتار النشاط والتجدُّد والامل وحب الحياة لانها الحياة . ومن عيوب لوتي الكبرى نظرتهُ الى المرأة فهي نظرة غير نبيلة . المرأة عندهُ اداة لهو وسرور ، ونحن نريد لرجالنا الشرقيين من هذه الجهة نزعة أعلى واشرف . نريد ان يشغل الرجل عندنا المرأة بعطفهِ ، ويرفعها الى افقهِ ليرتفع بها . ان يستوحيها ويوحي اليها فيتعاونان على حياة يعلمان أن اللهو والسلوى بعضها لا كلّها . وعندي ان الرجل مهما سمت عبقريتهُ ووفر علمهُ فهو ناقص ابتر ان لم ينظر الى المرأة النظرة النبيلة التي تعيّن لها في الاسرة والمجتمع مكانة كريمة .

ولوتي نداب كثير النواح والشكوى والتذمر فيؤذي من لا المام لهُ بآداب الغربيين ، او من كان قليل الالمام بها . كما كان قبلهُ شديد الاذى روسّو ناصب المناحات الكبرى ببلاغتهِ السيقة الملهبة وشكواهُ الحزينة المؤثرة . ولوتي فوق كل شيء لا مثل أعلى لهُ ولا غاية سامية في الحياة . ونحن اليوم اطفال في الحياة الفكرية لا يمكننا ان نهضم كل غذاء لان قوى التمييز والملاحظة والاختيار لم تكتمل عندنا . وشبيبتنا اليوم تحتاج الى ان تقودها غاية عظيمة والى ان يستحثها امل عظيم — او على الاقل وهمٌ عظيم . ومرحباً بالوهم اذا هو دفع الى العمل ، وحرّض على النشاط ، وأوحى حبّ الحياة وتقدير ممكناتها

اقول ان شبيبتنا لا تحتاج الى كتب لوتي بل الى كتب اساتذة اقوياء يكيّفونها ويستحثونها على الرجاء ويبثّون في نفسها اليقين . فترجمة كتب لوتي « صديق الشرق » خطر لمن لا يعرف ان يتسلّى بسحر لوتي تسلية ويعجب ببيانهِ دون ان يحسب قولهُ درساً واسوة

وبعد — وقد قلت ما اعتقد في هذا الباب — فان نفسي لترحل مجتازة البحر والبر لتصل الى ضريح لوتي . فتجثو هناك مصلّية ، وتضع عند زواياهُ طاقة الاسف والتحنان والشكران للصديق الذي احبّ من بلادنا كل شيء وكل احد . الصديق الذي لم تكن تملأ هاوية نفسهِ غير عطور الشرق ، ومعاني الشرق ، وتلك الاصداء المرفرفة الهابطة من اعالي المآذن مرددة « لا إله الا الله » (مي)